مجلة الآداب

الصفحات: 09 - 28

المجلد: 19، العــدد: 01 ، ديسمبر 2019

# أسئلة الهوية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر
# الحب في حضرة الأعور الدجال لعزالدين جلاوجي – أنموذجا –

## Identity questions in the contemporary Algerian novelist discourse ‘Love in the presence of the one-eyed antichrist’ of Azeddine djelaouji -as a sample-

د. كمال طاهير

جامعة عباس لغرور – خنشلة– الجزائر. katahir05@hotmail.fr

**ملخص:**

تستهدف الدراسة استقراء تجليات أسئلة الهوية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر، متخذة من المشروع الروائي للأديب الجزائري عزالدين جلاوجي ممثلا في مسرديته "الحب في حضرة الأعور الدجال" أنموذجا لبلوغ هدفها. وبما أن الرواية محل الدراسة تندرج ضمن صنف الرواية التاريخية والتي تعد جزءا مهما من مشروع الكاتب في تمثّل التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر، من خلال رصد التحولات التاريخية الكبرى والمفصلية التي أسست للشخصية الجزائرية في تعلقها بإرثها الحضاري والثقافي صامدة في وجه الأنساق الثقافية الاستعمارية التي أراد لها المستعمر الفرنسي أن تكون مركزية مهيمنة مقوضة أنساق الهوية الجزائرية، فإن الدراسة تحاول استقصاء آليات اشتغال الخطاب الروائي وتمثلاته الفنية للتاريخ وإعادة قراءته وفق منظور يزاوج بين الحاضر والماضي متجاوزا القراءة التسجيلية للأحداث التاريخية.

***كلمات مفتاحية***: الخطاب الروائي– أسئلة الهوية – التمثلات – التاريخ– المركز – الهامش

**Abstract:**

The aim of the present study is to extrapolate the manifestation of identity questions in the Algerian modern narrative discourse. To achieve its goal, it relies upon the project of the Algerian novelist Azzeddine Djilaoudji, namely his narrative “Love in the Presence of the One-eyed Charlatan” (Translation of the Arabic: Al-Hob fi Hadrat Al-Aawar A’ddadjal). The novel under study falls

المؤلف المراسل: كمال طاهير

within the gender of historical novels and consists an important part of the author's project in depicting Algerian modern and contemporary history through monitoring great historical changes and pivot points that had shaped an Algerian personality, deeply rooted in its civilizational and cultural heritage and constantly steadfast in the face of French colonial cultural models that have always intended to obscure the Algerian identity. Thus, the study attempts to investigate the functioning mechanisms of the narrative discourse, its aesthetical representations of the history, and its historical rereading according to a perspective that combines the present and the past away from the recording readings of historical events.

***Keywords***: Narrative discourse - Identity Questions - Representations - History - Centre - Margin

**مقدمة:**

يتخذ المشروع الروائي لعزالدين جلاوجي من الواقع الجزائري الراهن مركزا يطل من خلاله على سراديب الماضي، ليحفر في تاريخه العتيق عن المنابت الأولى للهوية الجزائرية، ما جعله يغوص في أعماق الواقع الجزائري بكل تناقضاته الاجتماعية التي فرضتها سلطة المركز الاستعماري في سعيها لفك الارتباط الروحي والتلاحم الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد.

هي إذا الحقيقة التي استوقفت عزالدين جلاوجي واشتغل عليها في سعيه للملمة التشتت الذي كاد يتمكن من المجتمع الجزائري في فترات تالية لاستقلال الجزائر، وكأني بالمشروع الروائي ينبش في التاريخ ليؤسس للمشروع الهوياتي الموحد الذي يجب أن يستلهمه الشعب الجزائري من تاريخه الحافل بروح الوحدة والتلاحم والالتفاف حول مكتسبات الهوية الجزائرية.

جعل جلاوجي من فئات الشعب المقهورة أو ما يعرف بالهامش في مقابل سلطة المركز الجاثم على الفئات الاجتماعية الهشة التي تعاني الفقر والتهميش.بيئة خصبة لإنبات مشروعه الفني، وهذا ما جعل صاحب الرواية ينتصر لصوت الهامش باعتباره الصوت الأقرب إلى تحريك الموروث وإحيائه، وعملية الإحياء هاهنا تُعدّ شرطا رئيسا في الحفاظ على عناصر الهوية .

هي إذا الفكرة التي انطلق منها مشروع المتن الروائي، وهي ذاتها الإشكالية التي تستند إليها الدراسة في التأسيس لمشروعها، مستندة إلى جملة من التساؤلات لعل أبرزها:

- كيف استطاع المتن الروائي أن يعبر عن تلك التحولات الحاصلة في المجتمع الجزائري؟
- كيف استطاعت الرواية تجلية البعد الوطني من خلال البحث عن الهوية الجزائرية المتأصلة في المنظومة المجتمعية؟
- ما هي مستويات الهوية التي اشتغل عليها المتن الروائي؟
- ما هي التقنيات الأسلوبية التي اعتمدها الكاتب في إثارة القارئ؟

## 1- سؤال الهوية

يأخذنا الحديث عن الهوية إلى ملامسة عوالم الخصوصية الإثنية للمجتمعات التي تلتف حول المقومات الأساسية التي تجتمع عليها أي جماعة إنسانية، المقومات هاهنا تؤسسها اللغة والدين، والعادات التقاليد، والحيز الجغرافي، يقول أحد الدارسين معرفا الهوية من وجهة نظر سوسيولوجية بأنها: "مجموع السمات الاجتماعية والثقافية والحضارية المميزة لجماعة بشرية معينة، والهوية بهذا المعنى تطال عدة مستويات وتشمل عدة مكونات أي أنها مفهوم واسع يشمل كافة النشاط البشري ويندرج عبر عدة مستويات: الهوية البيولوجية والهوية الاجتماعية والهوية الثقافية"[1].

قد تحدد الهوية البيولوجية السمات المشتركة للجماعة الإثنية بشكل أوضح من بقية العناصر الأخرى، لأن هذا العنصر يحدد نقاوة العرق وصفائه، ومع هذا التحديد تحتفظ الجماعة العرقية بسماتها البيولوجية التي تميّزها عبر العصور عن الإثنيات الأخرى. رغم صعوبة تحقق هذا الانكفاء الذاتي في الوقت الراهن بسبب الاختلاط الناشئ عن التواصل المباشر بين الإثنيات، التي قد تشكل الوطن الواحد بطريقة غير مباشرة من خلال التواصل المعرفي وما يضيفه للتكوين الفكري والثقافي للإنسان عبر عملية المثاقفة والتي لا تتوقف على مجال واحد.أو بطرقة مباشرة عن طريق الاحتكاك والبعثات، والتواصل المباشر.

تتشكل الهوية الذاتية في اختلافها مع الأخر يظهر ذلك جليا من خلال الحدود الفاصلة التي تقيمها أي إثنية على ذاتها مع ما تقوم به من احتفاء بعناصرها الهوياتية، ذلك أن الفرد لا يشعر بهويته الإثنية كمعطى أولي، يحدث فجأة ، بل ينمو ويطرد من خلال مكتسباته المعرفية وإحاطته الفكرية بمقومات المجموعة العرقية التي ينتمي إليها. يكتسب الفرد الشعور بهويته أكثر مع كل مرحلة حياتية؛ بدءا بالطفولة ثم مرحلة المراهقة، وفي كل مرحلة يتعلم طريقة جديدة في الدفاع عن هويته، يقول أحد الدارسين:" من الأمور البديهية عند علماء الاجتماع أن الهويات الاجتماعية تصنع وتتشكل بواسطة الناس أنفسهم، وأنها أمر مكتسب ويجتهد في الحصول عليها، وأن الهوية تنتج ويعاد إنتاجها من خلال التفاعل الاجتماعي"[2].

ينهض الشعور بالانتماء الهوياتي على مبدأ التكامل والتشارك بين الأفراد لتشكيل وحدة هوياتية، أو كما يعبر عنها هايدغر: بأنها قدّمت بطابع الوحدة ، هذه الوحدة التي ليست هي الفراغ الذي يدوم ويستمر في انسجام فاتر بعيدا عن كل علاقة، إنها الوحدة التي هي في ذاتها اختلاف، مبعدا للموقف الساذج الذي ينظر إلى وحدة الهوية كانسجام[3].

يصنع الإنسان هويته مع ما يبديه من شعور بالانتماء لمجموعته العرقية والدينية، ومن خلال تعزيز قيمه بممارسة الأفعال الدالة على ذلك، والسيرورة في الإنتاج الإبداعي، والذي يبرز ويتشكل بالالتزام بالقيم المعبرة عن هويته، يقول أحد الباحثين:" كل إنسان باعتباره مشروع وجود، يحمل طموحا لصناعة المجال الحيوي طبقا لحلم الوصول إلى الأفضل والأحسن. وكل إنسان لديه الدافع القوي لبناء مكانة والقيام بدور، ليس فقط على صعيد المعاش اليومي، إنما أيضا على صعيد الشأن العام. بذلك وحده يصنع انتماءه الذي لا يكفي أن يكون معطى له كهوية بالميلاد. وبذلك وحده يشعر بتجذر هويته ، ومن خلال الإسهام في بناء المجال الحيوي، أي وطنه. ويشكل تجذّر الانتماء الهوية، والمكان نواة أساسية في بناء الشخصية، وتحقيق الذات وصناعة مشروع الوجود"[4].

تتحقق الهوية على أرض واحدة تكون بمثابة الحاضن لهذا المشروع، وفي الوقت نفسه الحصن الذي يجب الذود عليه لحماية مكتسبات الهوية، داخل هذا الحيز يتحقق التفاعل بين الأفراد

فينتقلون من الهوية الفردية إلى الهوية الاجتماعية التي تسمى بالهوية القبلية والهوية الوطنية أو الهوية القومية.

قد تتداخل الهوية مع القومية باعتبارهما يحيلان إلى نفس الاهتمام، فهناك من يجعلهما مترادفين، بحكم أن مفهوم هوية مجتمع ما متصل إلى حد كبير بما يسمى بمصطلح شائع أكثر هو القوميات، وهو مفهوم حديث نسبيا ومرتبط أساسا بتمييز القوميات في القرن التاسع عشر[5].

يخضع التعامل مع هذه المصطلحات لبروز المقاربات السياسية والاجتماعية التي تحاول استبدال هذه الألفاظ بتلك، واللعب على وترها الحساس لتقوية الشعور بالانتماء في مقابل الآخر، كما حصل مع الوضع السياسي للأمة العربية في القرن الماضي، وما صاحبه من بروز واضح لخطاب القومية مع صعود التوجه الاشتراكي لسدة الحكم في الأقطار العربية، والتي كانت تنادي بتكتل الأقطار العربية تحت شعار القومية لمواجهة العدو المشترك للعرب، العدو المغتصب لأرض فلسطسن (الكيان الصهيوني)، " خطاب الهوية هو خطاب أيديولوجي يزدهر في فترات ومناطق معينة، ويقصد إلى توظيف أو استثمار مسألة الهوية ضمن استراتيجيات سياسية متعددة داخليا وخارجيا"[6].

يبرز خطاب آخر هو خطاب الأمة وهي شعور معنوي روحي بدأ يتعاظم مع الأخطار المحدقة بالكيانات الإثنية المشكلة للأمة والتي يعرفها إرنست رينان قائلا:" الأمة الروح، مبدأ روحي، أمران هما في الحقيقة لا يمثلان إلا أمرا واحدا يشكلان هذه الروح ، هذا المبدأ الروحي، أحدهما في الماضي، والآخر في الحاضر، أحدهما هو الملكية الجماعية لرصيد ثري من الذكريات ، الآخر هو العزيمة الحالية، الرغبة في العيش المشترك إرادة الاستمرار في الحفاظ على تميز الإرث الذي تلقيناه...الأمة كالإنسان هي تتويج لتاريخ طويل من الجهود، من التضحيات ، وتسخير الذات لتقديس الأجداد هو أكثر الأشياء شرعية، الأجداد جعلوا منا نحن ما عليه، ماضي بطولي، رجال عظام، المجد..هذا هو رأس المال الاجتماعي الذي تستند إليه فكرة القومية امتلاك أمجاد جماعية في الماضي، إرادة مشتركة في الحاضر، تحقيق منجزات جماعية كبرى، وإرادة تحقيق منجزات أخرى. هذه هي الشروط

الأساسية لوجود الشعب (الأمة)....تضامن كبير مكون من المشاعر والتضحيات التي قدمناها والتي نحن مستعدون لمزيد من تقديمها تفترض ماضيا ولكنها مع ذلك تتلخص في الحاضر"[7].

يحدد نص رينان – على طوله النسبي – مكونات الهوية بالنسبة لأي جماعة إنسانية، والتي تكون محصلة لمجموع الإرث الحضاري الذي ورثه الإنسان من أجداده، يضاف إلى ذلك مجموع المنجزات والمكتسبات التي تتحقق للإنسان في حاضره والتي تكون من خلال المشاركة الفعلية في تشييد الراهن مستندا إلى الماضي ومتسلحا بأهم مبادئه، وعلى ذلك يكون كل منجز في التاريخ إضافة فعلية في عملية التشييد الذي لا يقتصر على الماديات فحسب، بل يتحقق أيضا في الأمور المعنوية والتي تختص بتمجيد البطولات وتقديسها من خلال استعادتها وتذكرها كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، كما يحصل مع إحياء الأعياد الوطنية والأيام التاريخية لأبطال الأمة، كما هو الشأن بالنسبة للعيد الوطني للشعب الجزائري وعيد الثورة والأعياد الدينية، وفي ذلك كله تذكية لروح الشعور بالهوية الوطنية الجزائرية والهوية الدينية ضمن هوية الأمة العربية الإسلامية.

## 2- تجليات خطاب الهوية في الرواية

يشتغل الخطاب الروائي الجزائري المعاصر الذي يضع أسئلة الهوية كمركز ثقل في مشروعه الروائي على تحقيق مجموعة من الأهداف، لعل أبرزها خلق نوع من التآلف بين المبدع والقارئ، وبخاصة إذا كان الاثنان ينتميان إلى إطار هوياتي واحد، ولهذا يعمد المؤلف على البحث عن الأدوات والوسائل اللغوية التي تثير المتلقي من خلال إثارة الشعور عنده بالانتماء إلى الوطن والأمة أكثر من أي وقت مضى ، فيتحول الخطاب الروائي إلى عنصر داعم في بناء روح الهوية عند القارئ والمبدع على حد السواء، يحدث ذلك من خلال التساؤلات التي يطرحها النص الروائي على المتلقي، تقول أحلام مستغانمي: " في الشعر أنت لا تطرح سؤالا، أنت تتحدث عن حالة ولكن في الرواية هي المساحة الكبرى للأسئلة التي ليس لها بالضرورة أن تجد لها أجوبة"[8].

لم يحد عزالدين جلاوجي في روايته عن المشروع الروائي الجزائري المعاصر، وهو الذي اتخذ من الرواية التاريخية مشروعا له في استعادة تاريخ القطر الجزائري منذ البدايات الأولى لتشكل كيان الوطن

الجزائري، يقول ناشر رواية ( الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال): " الحب في حضرة الأعور الدجال هي الثامنة في المنجز الروائي الجلاوجي، وهي الجزء الثاني من مغامرة سردية أرادها صاحبها في خمسة أجزاء، ترصد ما يقرب قرن من التحولات الكبرى التي لحقت المجتمع في كل مجالات الحياة، ولكنه رصد يأنف عن التسجيل والتأريخ ليعانق الفني والجمالي "[9].

## 2-1- الهوية الوطنية

تبرز الهوية الوطنية بشكل لافت في الرواية، بل يمكن اعتبارها مركز ثقل بالنسبة للرواية ككل، ذلك أن مشروع الرواية قائم على التأريخ الفني لمرحلة مهمة من مراحل كفاح الشعب الجزائري لأجل استرداد حريته التي اغتصبها المعمر الفرنسي الذي أذاق الشعب الجزائري مختلف صنوف العذاب والتهجير والتعنيف والتقتيل. وهي المشاهد التي جسدها الكاتب وهو يقدم لنا بطل الرواية والذي أراد له أن يكون معبرا ومنشغلا باستعادة التاريخ من خلال عملية التذكر والاسترسال في استرجاع الأحداث المنهكة بمختلف صنوف العذاب والمعاناة، يقول الكاتب :

" إذ ذاك كان العربي موستاش يترصد مئات الخطى البائسة وهو يقتعد كرسيا خشبيا دون متكئ أمام مقهى العرب، سنوات مضت على مجازر الثامن كأنما هي تقع الآن تأتيه الصيحات إلى أعماق أعماقه ويأتيه العويل وزخات الرصاص، وسواقي الدموع والدماء من كل الفجاج "[10].

يتدرج الكاتب في المحاججة باستحضار أدوات إقناع القارئ، ينتقل من المتخيل إلى الواقعي الذي تجسده صورة المقبرة كشاهد عياني على تلك الأحداث، وهي تكتظ بالعدد الهائل من الشهداء في سبيل الوطن، والذي عطرته وملئت أرجائه بعطرها الزكي ، يقول الكاتب: " كانت المقبرة قد لاحت من بعيد، وبعض الزوار يدخلون إليها سريعا، لعلهم يعدون قبرا جديدا، أو ربما قبورا، ليس أسهل من الموت، ليس الثأر ثأرك يا عبد الله يا وليدي، إنه ثأرنا جميعا، ثأر وطن ينزف دما منذ أكثر من قرن"[11].

تلخص هذه المشاهد ما كان يتعرض له الشعب الجزائري من مشاهد للتقتيل من طرف الاستعمار الفرنسي الذي كان يجابه أبناء الجزائر بكل وحشية، دون أدنى اعتبار للإنسانية، فالقتل

صار ديدنه، والأبعد من هذا كله التنكيل بأبناء الوطن في الساحات العامة، كما حدث مع قتل (العارم) وهي إحدى شهيدات الوطن المفجوع. التي أراد لها الكاتب أن دلالاتها معبرة عن الهوية الجزائرية شأنها شأن كل الشخصيات المتواترة في الرواية كتعزيز لخطاب الهوية، ذلك أن الأسماء تعد بمثابة العلامة السميائية الأكثر تعبيرا عن الهوية.

"في لحظات وصلت مجموعة أخرى من العساكر من الاتجاه المقابل، وقد ارتفعت صيحات الجنود مصفقين مغنين، لم يكن المسحوب خلف الحصان إلا العارم بنت بولقباقب، والتي بدت شبه عارية أيضا، ولقد ربطوها من يديها وضفيرتها، فبدا كل شيء حبالا مفتولة، وبدت ساقها مكسورة تتأرجح من منتصفها، ربما كانت تتنفس ، لكنها يقينا لم يكن يصدر منها أي صوت أو أنين"[12].

هي مشاهد صادمة لمستعمر وحشي، لا يعترف بالمواثيق الدولية، ولا يقيم شأنا للأعراف الإنسانية التي تمنع قتل النساء والأطفال، بل تراه ينكل بالجثث غير آبه بما ينجر على ذلك من قهر وتعذيب نفسي للمشاهد. ثم تأمل معي فظاعة هذا المشهد للشهيدة العارم بعد استشهادها من جراء السحب والتعذيب:

" في حركات بهلوانية تم حمل العارم دون رمق، تهاوت عنها الثياب، بدت عارية تماما، كانت عجفاء كأنما عصفت بها مجاعة رهيبة، يتدلى ثدياها الجافان كقربتين يابستين، وفي بطنها تهرؤ لا يتناسب مع أضلاعها التي كادت أن تخترق الجلد، جلس جندي أمامها فكاد رأسه يغطي سوءتها، ومد الجنديان اللذان يمسكان بذراعيها يديهما إلى صدرها، وابتسم الجميع وهم يأخذون في عجلة صورة تذكارية لهم"[13].

يقدم الكاتب مشهدا ينم عن احترافية كبيرة، وقدرة فائقة على إثارة المتلقي فنيا ومعرفيا والتأريخ لهذه المرحلة المفصلية من تاريخ الجزائر؛ وذلك بتجديد الحس الوطني وبعث الحياة فيه لإعادة خلق التلاحم بين أفراد المجتمع، وبخاصة لما نعلم بأن الكاتب بدأ يستشعر نوعا من التفكك والتخلي عن الثوابت والقيم الوطنية مع مرور الوقت وابتعاد جيل الاستقلال تاريخيا عن ثورته

المقدسة والتضحيات الجسام التي قدمها أبائه وأجداده في سبيل أن ينعم الأبناء والأحفاد بنسمات الحرية والاستقلال.

يُعول الكاتب على استعادة الذاكرة وتشريح أعمال المستعمر الذي تفنن في ترويع أبناء الوطن، ولذلك جاءت أعماله الإجرامية ممنهجة تتنوع بين الترهيب والتجويع والتقتيل وحتى التنكيل بالجثث لزرع الخوف وقتل الأمل في النفوس لتستسلم لقدرها المشؤوم، ومن ثمة تتحقق مطامع المستعمر في تجريد الشعب من هويته التي يأبى أبناء الوطن التفريط فيها مهما تعاظمت وحشية المستعمر، والذي يبدو أنه جرب كل الطرق لكنها فشلت أمام تلاحم الناس في عز أزمتهم، انظر معي كيف يختصر الكاتب تعاقب سنين العذاب المسلط على أبناء الجزائر في هيئة الشهيد العارم (كانت عجفاء كأنها عصفت بها مجاعة رهيبة) وفي ذلك تعبير عن تعاقب سنوات المجاعة.

لا يتوانى عزالدين جلاوجي في رسم مشاهد لبشاعة المستعمر، حتى أنه يقف عندها بشكل دقيق ومفصل، متجاوزا السرد التاريخي للأحداث، محققا المتعة الجمالية المرجوة من العمل الروائي، مبحرا بحسه الفني في العوالم النفسية لشخصيات العمل الروائي، أراد لها أن تكون متشبعة بالقيم الوطنية، متمسكة بعروبتها ملتزمة بإسلاميتها من خلال تقديس سدنة العربية الإسلام في تلك الفترة (المشايخ والأئمة) الذين يقدمون صورة متعالية للتسامح والتعاون على هدف واحد تتسيده كرامة الإنسان بخلاف الطرف الأخر (المستعمر الأوربي) الذي تخلى عن إنسانيته مع تجرده من كل القيم الروحية والعقدية وأبدلها بترويع المسنين والضعفاء (يتدلى ثدياها الجافان كقربتين يابستين)، لعلها إشارة واضحة إلى جبن المستعمر، فالصورة هاهنا جاءت للدلالة على تقدم سن الشهيدة ( العارم) وضعفها الجسدي، ورغم هذا الاستعمار لم يرحمه. في مقابل ذلك يقدم لنا صورة لجنود الاحتلال وقد نهبوا مقدرات هذا الشعب، ذلك ما يظهر جليا في صورة الجندي القاتل الذي تظهر عليه ضخامة في الهيئة، وفي ذلك احتقار واضح لعدم التكافؤ بين القاتل والمقتول ( فكاد رأسه يغطي سوءتها).

يقيم الكاتب مع هذا المشهد تناظر بين المستعمِر والمستعمَر من جهة القيم والثوابت تتعلق أساسا بالبعد الأخلاقي والقيم التي يحتكم إليها الإثنين؛ فإذا كان الأول لا يعترف أخلاقيا بكرامة الإنسان حيا وميتا مع عملية التنكيل بالجثث، فإن التكوين الديني والثقافي للمجتمع الجزائري يختلف كلية عن ذلك، بل تراه يحفظ كرامة الإنسان بعد موته كما تعبر عنه هذه الصورة، "طارت العيون المتلصصة ، رفرفت القلوب النازفة حرقة، وكان عزوز التونسي وحسان بلخيرد أول الواصلين عند العارم، لحق بالجميع علي التمار وأسرع يرمي ببرنسه على جسدها العاري، ردد حسان بلخيرد

- سترتها سترك الله.

وأسرعوا بها محمولة على الأكتاف"[14].

اشتغل العمل الروائي على البعد الهوياتي بشكل لافت، بل نحسبه العلامة الفارقة في الرواية من خلال التضاد الحاصل بين الأنا والآخر، بين ثقافتين وهويتين مختلفتين لا يمكن أن تتعايشا بأي حال من الأحوال. ذلك مايبرزه هذا المشهد؛ " ومد الجنديان اللذان يمسكان بذراعيها يديهما إلى صدرها، وابتسم الجميع وهم يأخذون في عجلة صورة تذكارية لهم"،

الفرق واضح إذا بين الهويتين المتضادتين بشكل صريح، الأمر الذي يجعل من التعايش بينهما أمرا مستحيلا ، بين هوية لا تعترف بالأخلاق ولا تحتكم إلى أي وازع ديني، وبين هوية تتأس هويتها الثقافية على مرجعية دينية تمجد الإنسان في حياته وفي موته (وأسرعوا بها محمولة على الأكتاف).

تتجلى أكثر ملامح الهوية الوطنية في الرواية مع روح التلاحم والانتماء للوطن الواحد والمصير المشترك لجميع أبنائه، بالتالي ضرورة محاربة هذا العدو المشترك، الحقيقة التي وقف عليها في النهاية كل أطياف الشعب الجزائري حتى أولئك الذين كانوا يمنون النفس بالاندماج والمساواة مع الفرنسيين أدركوا بأن هذا الأمر قبر مع فكرة السيد والعبد التي يؤمن بها الفرنسيين والتي لا يمكن المساومة حولها؛ فالمستعمر متشبع بتوجهاته العنصرية التي تجعله يقيم حدا فاصلا بين قوميته وهويته الاستعمارية وبين الهوية الجزائرية التي يريد لها أن تطمس تماما، فالصراع بالدرجة الأولى حضاري يركز

على عنصر الهوية، بالتالي مناص من مهادنة المستعمر المتوحش كما كانت تنادي بعض الأصوات من أبناء الشعب الجزائري.

" وما كاد فرحات يسرد بالتواريخ المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق شعبنا منذ 1930، حتى قاطعه صالح القاوري:

-المشكلة في رأيي في هذا الشعب، هو يرفض الحضارة، فماذا تفعل له فرنسا؟

قاطعه فرحات عباس وهو يذيب سكر قهوته الثانية.

-لو قدمت فرنسا كتبا بدل الرصاص والمدافع، لو بنت لنا المدارس بدل الثكنات، لاختلف الأمر يا سي صالح، الإحسان يستعبد الناس، وإذا استمر الأمر على هذا الحال، سينسلخ هذا الشعب كله من فرنسا"[15].

استنفذت كل الحلول مع فرنسا المخادعة التي ترفض فكرة الإدماج أصلا ، وهي المقتنعة أصلا بأن هذا الشعب وُجد ليكون عبيدا وخداما لها ، تستنزف ثرواته وتجابهه بالعنف، فهي تبني المدارس والمعاهد على أرضها وتبني الثكنات على أرض الجزائر، بل حتى من تعيّنهم لإدارة شؤون الجزائر هم أكثر عدائية لهذا الشعب، ذلك ما تجسده صورة اليهودي المخادع الذي عيّن واليا عاما على الجزائر.

" رد صالح القاوري بسخرية وهو يعدل قبعته الفرنسية، وسكت الجميع فراح يقلب فيهم النظر واحدا واحد.

- لقد أعلن والي الجزائر العام جاك سوستيل عن إصلاحات جذرية، وسنرى كيف يكون رد هؤلاء الحمقى، وأنا على يقين أنهم سيستمرون في حماقاتهم التي لن يصلوا بها إلا إلى الانتحار، وهؤلاء لا يردهم إلى جادة الصواب إلا العنف.

قاطعه أحد الحاضرين بقلق.

– يجب أن تعرف يا صالح المغفل، أن جاك سوستيل من أصل يهودي، اسمه الحقيقي بن سوسان BEN SOUSSAN ، وإصلاحاته مجرد خديعة يتقنها اليهود، وهو من أشد الأعداء لهذه الأرض، وهذه الأمة.

انتفض صالح القاوري وهو يقف.

–أمة؟؟؟ أنت أحمق نازي عنصري، وحتى لو كان يهوديا هل هذا عيب؟ المهم أنه سيخدمكم يا بقر يا متخلفين"[16].

يقدم لنا المشهد صورة مختصرة للصراع المحتدم بين الوطنيين الذين يتطلعون للاستقلال ورفضهم المطلق لكل المبادرات التي تطلقها فرنسا لاحتوائهم، وبين الخونة الذين جندتهم فرنسا لمساعدتها على استعباد هذا الشعب، مثل شخصية صالح القاوري الشخصية المتناقضة، الذي يظهر تناقضها في اسمها والذي أراد من خلاله الكاتب أن يمرر رسالة لكل من يتطلع إلى الإنعتاق في ثقافة الأخر غير ثقافته، ويلبس هوية غير هويته، فالأخر لم يقبله تاريخيا ولن يتعايش معه مهما أمعن الطرف الأخر في الإحسان إليه.

مع كل هذا الصراع بدأت تتشكل ملامح الهوية الوطنية عند كل فئات الشعب وطبقاته، وعلى اختلاف قناعاته، فازداد أواصر الوحدة بين أبناء الوطن الواحد، ومعها بدأت تتنفس الفئات المهمشة وتتطلع إلى الحرية التي بدأ يلوح شعاعها مع تلاحم الشعب والتفافه حول قضيته.

أراد الكاتب لتلك الطبقات المهمشة أن تكون حاضنا للثورة، لأنها أكثر فئات المجتمع تشبعا بقيمها، الدينية والثقافية، والعرقية، القومية، كونها الفئة الوحيدة التي كانت الحدود بينها وبين المستعمر جلية، بعيدة كل البعد عن الاحتكاك والاختلاط المباشر معه، فكانت محصنة من جهة الحس الوطني والهوية الجزائرية. ولعل شخصية البطل سي رابح من أكثر الشخصيات في الرواية اعتزازا بالهوية الجزائرية التي بدأت تتحقق مع أول رمز من رموزها (الطابع).

" كانت الرسالة مكتوبة بخط مغربي واضح وكبير: حكمت عليك الثورة بالذبح أيها الخائن، في أسفل الرسالة يتربع طابع جيش جبهة التحرير واضحا، أحسّ رابح بالانتشاء، صار لنا جيش

وجبهة، وصار لنا طابع يمثلنا ، وأخيرا صرنا دولة، رغم أنف فرنسا صرنا دولة، لكن من يقف وراء الرسالة؟ وما فعل هذا اللعين؟ سأل سي الهادي مضطربا:

– ما ترى عمي رابح؟

– لا يكون إلا خيرا، كلٌ يموت بأجله ياسي الهادي"[17].

يعمد الكاتب مع هذا المشهد إلا التأكيد على بداية تشكل الوعي الوطني، وبروز فكرة الاستقلال، بل أصبح قضية كبرى بالنسبة لكل إنسان، لأن الوطن يجب أن يُقدم على كل شيء. يتأكد ذلك مع الصورة المجسدة لملامح البطل سي رابح الذي أصبح يثق في الثورة أولا وبشكل مطلق، يثق في صوت المجموعة، ولا يثق في الفرد (وما فعل هذا اللعين؟ )، لأنه يدرك بأن قوة هذا الشعب في التفافه حول قيادته، ولعل حالة الانتشاء التي تظهر على سي رابح – رغم الموقف العرض أمامه الحكم بالموت على سي الهادي– بالمكتسبات الوطنية الجديدة المتحققة ( الجيش، الجبهة، الطابع، الدولة) وهي كلها أركان للدولة.

لا يتوقف المشهد عند الفرح ببداية تشكل كيان الدولة، بل يتجاوز إلى حالة الرضا والطمأنينة مع التمسك بمقومات الهوية الثقافية التي التف حولها الثوار( الكتابة بالخط المغربي الواضح الكبير) وفي ذلك إشارة أخرى إلى تشكل الهوية القطرية ( الجزائرية المغاربية) بعيدا عن الهوية المشرقية.

يلجأ الكاتب إلى تقنية التكرار للتأكيد على التطور الحاصل والسريع في الوعي الوطني، وذلك باستخدام لفظ (واضح) للتعبير عن فكرتين تعبران عن البعد الهوياتي في القضية، والمفارقة أنهما يتعلقان بالصورة المرئية (الكتابة والطابع) وهما الصورتان اللتان عمدا المستعمر على محوهما تماما من خلال الاعتماد على فكرة تجهيل الشعب وحرمانه من حقه في المعرفة، كما أن صورة الخط المغربي القديم تشير إلى ذلك الجهد والكفاح الذي لم يتوقف أبد من الزوايا والمساجد والكتاتيب في كل ربوع الجزائر التي كانت تشتغل على تكريس مبادئ الهوية العربية الإسلامية في أذهان الناشئة.

من هنا اكتسبت فكرة الوضوح مشروعيتها في المتن الروائي، لأنها تتعلق بالمعرفة واكتسابها أولا، بها فقط يستطيع هذا الشعب أن يتحد ويواجه المستعمر في الدفاع عن أرضه، يقول عبد الله أحد أبطال الرواية :

" تعلمت الكثير في الحرب العالمية الثانية ضد الألمان، وكانت فرنسا تظننا ذهبنا لنحارب من أجلها، كنا جميعا نتدرب من أجل هذه اللحظة، لا أرض تستحق دماءنا إلا أرضنا وأرض أبائنا وأجدادنا، وحتى الذين هاجروا من هنا بالمئات للدفاع عن فلسطين لم يذهبوا إلا لإيمانهم أنها أرضهم"[18].

قال عبد الله

-ونحن نتعلم منك.

-بل تعلم من هذه الأرض، فلتكن هي مدرستك العظمى، لتملأ قلبك عشقا وتضحية وشجاعة لا تنتهي، وإني أسمع صوتها كل حين يملأني قوة وكبرياء، لأنتقم من هؤلاء الخنازير الذين قتلوا منذ دخلوا الملايين واغتصبوا أرضنا وعرضنا"[19].

يبدو مع هذا المشهد أن الشعب الجزائري صار متشبعا أكثر بقيمه الوطنية، وأصبح مقتنعا أكثر من أي وقت مضى بأنه يعيش اللحظة الحاسمة، وأصبح يملك من المؤهلات ما يساعده على القيام بثورته، بل تراه مقتنعا بالنصر، ولعل قناعته مستمدة من هذه الأرض المباركة التي تستحق دمائه لأجلها، الآن أصبح جاهزا ماديا ومعنويا لمحاربة المستعمر وطرده من أرضه المقدسة بقيمها الدينية والعرقية المحفورة تاريخيا بجذورها الممتدة إلى هويتها القومية العربية التي يؤكد عليها الكاتب من خلال الشعور بالانتماء للأرض المقدسة بفلسطين وواجب الدفاع عليها أمام الكيان الصهيوني المغتصب الذي لا يختلف عن الكيان النصراني الفرنسي.

## 2-2- الهوية الثقافية

تعد الهوية الثقافية من أهم المكونات المساهمة في تشكّل الكيان الذاتي ومن ورائه الكيان الإثني، لعلها الفكرة الرئيسة التي اشتغل عليها المتن الروائي من بدايته إلى نهايته، ومع كل عناصر الرواية بما في ذلك الفضاء والأمكنة والشخصيات والتي يبدو أن الكاتب اختارها بعناية فائقة لتؤدي أكثر من

وظيفة على مستوى العمل، قد تتجاوز وظيفتها الاعتيادية لتندمج مع النسق المهيمن على النص ونقصد به هاهنا النسق الثقافي بمختلف عناصره، فأسماء الشخصيات تعبر عن ملامح الإنسان الجزائري في هيئته وفي تصرفاته وفي إيحاءاته على المشروع الوطني الذي يسعى أبناء الوطن إلى تحقيقه والذي يبرز مع الشخصية الأولى التي تطل علينا في الرواية شخصية سي رابح وما تحيل إليه سيميائيا من تفاؤل يقيني في تحقق الأماني، أماني الاستقلال، يقول الكاتب مقدما إحدى شخصيات الرواية :"كسي رابح الذي ظل جامدا تحت برنسه الأبيض"[20].

اشتغل الكاتب على تقنية اختيار الأسماء لتتناسب ومشروعه السردي، من ذلك اسم الشخصية البطلة في الرواية (سي رابح) الذي يحمل مجموعة دلالات منها شيوع هذا الاسم عند الجزائريين وفي منطقة الشرق الجزائري، كما أن دلالته الاسمية تدل على الربح والنصر المأمول، بالإضافة إلى ارتباط هذا الإسم في الثقافة الشعبية بالخير والبركة. وما يدل عليه أيضا في الموروث الثقافي المادي للثقافة الجزائرية (البرنوس الأبيض)، والذي أراد له الكاتب أن يكون السمة الظاهرة في شخصية البطل وهو يتوشح به كرمز للنقاء والطُهر والسلام.

سارت جل التسميات للشخصيات الأخرى حسب وظيفتها في العمل الروائي، ووفق الصورة التي تقدمها عن الهوية الجزائرية وثقافتها ، من ذلك العربي موسطاش والرامز للقومية العربية، في الإسم والصفة التي تلحق به (موسطاش)، وهي شخصية عملت على تأدية دور الإنسان الحازم الذي يساعد الناس، كما أنه اظطلع في الرواية بدور الإنسان الكريم المحافظ على أصل العائلة. يقول الكاتب: " ورغم ما أبداه من رفض أصر العربي الموسطاش أن يغسل رجلي أخيه وهو يردد:

- أنت رائحة أبينا بلخير، وشرف أن أغسل رجليك"[21].

" صباحا كانا في السوق الأسبوعية، وكان هدف الزيتوني المعلن من زيارة سوق البهائم هو التعرف على أسعارها، ولكن العربي الموسطاش أدرك يقينا أنه بحاجة إلى بهيمة للبيت، وما مجيئه بالأمس راجلا إلا لذاك السبب، ولن يعود أخوه إلى العرش إلا بها.

وقف العربي الموسطاش عند جواد أسود به بهاء وبه قوة، تفحصه محققا فيه كالخبير، سأل أخاه عن رأيه ، أبدى الزيتوني إعجابه به أيضا، ابتاعه من صاحبه وراح يجره خارج السوق"[22].

" قبل أن يغادر الزيتوني المدينة، حمّله العربي الموسطاش ككل مرة بمؤونة قد تكفي الأسرة أسبوعا كاملا، وكم كان فخره كبيرا بأخيه وبوفائه، وكم كانت سعادته غامرة بهذا الجواد الذي كانت الأسرة في أمس الحاجة إليه"[23].

كأني بالكاتب وهو يركز على روح التآلف بين أفراد العائلة الجزائرية، إنما يستعيد صور الكرم العربي التي تأصلت منذ الجاهلية حتى عدّت سمتهم البارزة، وهي الأنماط التي اشتغل عليها المتن الروائي كثيرا. من ذلك هذه الصورة التي تعبر عن روح التلاحم في أشد المحن والأزمات التي حلت بالجزائريين في تلك الحقبة، " وراح يعيد حكاية الأيام التي قضاها في رعايتها رفقة ابنتها رشيدة وبوطبيلة وسي رابح، كانت أياما أعلى من الجراح والآلام، ولا يمكن لشعب يكون بتلك الصلابة، وبتلك التضحيات إلا أن ينتصر"[24].

لعل مازاد في لحمة هذا الشعب، تمسكه بمقوماته الثقافية وبرموز الثقافة العربية الإسلامية، لعل أبرزها اللغة باعتبارها العلامة الفارقة بين الجزائريين والمستعمر وجوهر الصراع بين الإثنين، اللغة التي أبدى الجزائريون تمسكا كبيرا بها، كونها مصدر فخرهم وعزتهم، كما يظهر في حديث بطل الرواية

" – سي رابح أنت تعرف الفرنسية، فلماذا ترغمنا على الترجمة لك ؟

قالها المترجم الذي لم يكن سوى من جزائري مجند عند الفرنسيين، رد سي رابح:

-أكثر من قرن وهم بيننا ولم يتعلموا لغتنا ويريدوننا أن نتكلم لغتهم أخذوا منا الأرض، ويسعون لأخذ لساننا" [25].

لم يتخل الجزائري عن كل مقوماته، وبخاصة جانب العقيدة من خلال تمسكه بالدين الإسلامي، والذي عبرت عنه الرواية في هذا المشهد،" – ما كنت أظن أن لصالح القاوري كل هذه المنزلة لدى فرنسا، هل سيدفن في مقابرهم أيضا؟

-لا أعلم، يظهر أن العائلة كلها منخرطة في الخيانة، أخوه ضابط لدى فرنسا، ويحمل جنسيتها...بل حتى دينها.

أثارت الجملة الأخيرة العربي موسطاش، استدار كلية لسي رابح الذي كان قد اعتدل تماما في جلسته ، ولبس حذاءه، وعدل من وضعية عمامته.

حتى دينه؟ لقد ارتد، يستحق الذبح أيضا "[26].

يعد الوازع الديني المحرك الأول لأي مجتمع، حتى أنه يعتبر من المقدسات التي لا يمكن الدوس عليها، وهذا ما يبدو جليا في موقف الشخصيتين البطلتين في الرواية في تعاملهم مع مقتل صالح القاوري، فهما لم يتعجبا من خيانته للوطن، بقدر تعجبهم من ردته على دينه الإسلامي، والذي استحق الذبح.

عمل الكاتب على استحضار جل الرموز المعبرة عن الهوية ليلحقها بشخصياته من جهة الدلالة الإسمية ومن جهة الوظيفة داخل الرواية، بل من جهة الوظيفة الاجتماعية والدور الذي كانت تضطلع به هذه الشخصيات التي قد تختصر أسس الهوية الجزائرية في الاسم والوظيفة والملامح.

**خاتمة:**

مما تقدم جاز لنا القول بأن عزالدين جلاوجي من خلال روايته استطاع أن يلج عوالم الطبقات البسيطة والمهمشة في المجتمع الجزائري والتي زادها الاستعمار الفرنسي تهميشا، وعمّق من معاناتها وهو يتفنن في تعذيب الأهالي، مبتكرا ما استجد عنده من أفكار وما استحكم عليه من طرائق تيسر عليه طمس معالم الهوية العربية الإسلامية للإنسان الجزائري، ممنيا النفس بتغييب شعور الانتماء للهوية الوطنية الجزائرية .

اشتغلت الرواية بكثرة على تيمة الهوية الوطنية، فاسحة المجال لبروز جملة من التعارضات النسقية الظاهرة والمضمرة في النص،

التي أبرز الكاتب تلك التعارضات بين الثقافتين المختلفين، مهتديا إلى فكرة مهمة مؤداها استحالة التعايش بين المركز المستعمِر والهامش المستعمَر .

يحوز الكاتب على ملكة تخيلية كبيرة من خلال التنويع في المشاهد التي صورت معاناة الشعب الجزائري مع همجية مستعمر لا يرحم مهووس بهواجس الانتقام والسادية ، فبدت تلك المشاهد كأنها حقائق عينية ماثلة أمام المتلقي.

استطاع الكاتب من خلال مشروعه أن يعيد طرح أسئلة الهوية من زاوية فنية ومن منظور مختلف عن الطروحات السابقة، وذلك بجعل الإحساس بالهوية بالنسبة للجزائريين ليس معطى أوليا جاهزا، بقدر ما هو تضحيات جسام قدمها الشعب في سبيل إعلاء هويته.

استفاد الكاتب كثيرا من تكوينه الأكاديمي، وذلك من خلال بث كثير من المعرف داخل العمل الروائي، وهو ما مكنه من استحضار التاريخ بطريقة فنية تجمع بين القيمة المعرفية للتاريخ وبين العرض الفني الذي يستهدف استنهاض القراءة الجمالية بشكل تسلسلي يتناسب وأحداث الرواية.

## الهوامش والإحالات:

[1]– محمد سبيلا، خطاب الهوية، ندوة علمية، بعنوان الهوية والتقدم، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، أفريل1993، ص43.

[2]– منير غسان وآخرون، الهوية الوطنية والمجتمع العلمي والإعلام ،(دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية)، دار النهضة ، بيروت، ط1،2002، ص67

[3]– عبد السلام بن عبد العالي: هايدغر ضد هيجل (التراث والاختلاف)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2،2006، ص84.

[4]– مصطفى حجازي الإنسان المهدور(دراسة تحليلية نفسية اجتماعية) المركز الثقافي الغربي، المغرب، بيروت، ط2، 2004، ص250.

[5]– ينظر: سعد العزاب، العمل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1990، 12

[6]– محمد سبيلا، خطاب الهوية، ص14.

[7]– سعيدة بن بوزة ، الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دار نينوى للدراسات والتوزيع والنشر، دمشق، سورية، ط1،2016، ص29،27، نقلا عن: خير الدين الصوابني ، الهوية في التفكير العربي الحديث.

[8]– نفسه، ص120.

[9]– عز الدين جلاوجي، الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال، دار المنتهى، للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر، ط1، 2017. صفحة الغلاف في آخر الرواية.

[10]– نفسه، ص12.

[11]– نفسه، ص19.

[12]– نفسه، ص296.

[13]– نفسه، ص296.

[14]– نفسه، ص298.

[15]– نفسه، ص130.

[16]– نفسه، ص 130.

[17]– نفسه، ص163.

[18]– نفسه، ص177.

[19]– نفسه، ص277.

[20]– نفسه، ص09.

[21]– نفسه، ص136.

[22]- نفسه، ص136-137.

[23]- نفسه، ص137.

[24]- نفسه، ص276.

[25]- نفسه، ص219.

[26]- نفسه، ص199.